تراثنا الفكري وإشكالية التجديد

بقلم: د. عبدالكريم حامدي- الجزائر

أثارت فكرة التجديد طوال العقود الأخيرة من عصر النهضة جدلا واسعا في الساحة الفكرية والثقافية للعالم الإسلامي، والفت بظلالها على قطاعات عريضة في المجتمع تتقدمهم النخبة حاملة لواء التغيير والإصلاح. وما تزال الفكرة حية إلى الوقت الراهن تستقطب الأنظار والأفكار، تحت مصطلحات متنوعة، وأغراض متباينة، لكنها متحدة في المعنى والدلالة. وأهم المواضيع التي نالت حظا وافرا من السجال الفكري والنقاش العلمي، موضوع تجديد التراث الفكري الإسلامي، حيث تجاذبته تيارات متنوعة تركت بصماتها من خلال الملتقيات والندوات والمؤلفات. والنقطة البارزة التي مازال الجدل محتدما حولها، هو إشكالية التجديد في ذاته، بالرغم من قناعة الجمهور المثقف من كونه ضرورة حضارية ملحة، لا غنى عنها لأي مجتمع يريد النهوض بنفسه وإيجاد مكانة محترمة في هذا العالم. فما هي حقيقة الإشكالية التي تعترض التجديد والمجددين؟ هذا ما سنتعرف عليه بعد تحديد مصطلح التراث، والفكر، والتجديد.

مفهوم التراث: التراث مدلول لغوي ومدلول اصطلاحي. فأما اللغوي فيطلق على كل ما تركه السلف للخلف، والسابق للاحق، من مخزون ديني وثقافي وفكري وعمراني، يمثل حضارة ذلك السلف وقيمه المادية والمعنوية. ومن هنا فإن التراث الإسلامي في المفهوم اللغوي شامل لكل ما تركه أسلاف المسلمين بدءا من عصر النبوة وكل من جاء بعدهم، فيدخل فيه تراث الكتاب والسنة وما انبثق عنهما من مجهود فكري بشري، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ (فاطر-٣٢).

أما التراث في المفهوم الاصطلاحي، فهو ما تركه السابقون للاحقين من فهوم الكتاب والسنة، أي أنه اجتهاد بشري غير معصوم قابل للخطأ والصواب، فتخرج بذلك نصوص الوحي المقدس من حيز التراث، فلا تكون خاضعة لمعايير التقويم والتجديد. وهذا الضبط والتحديد مهم حتى لا نخلط بين المقدس وغير المقدس، والإلهي والبشري، والنص وفهم النص [1].

مفهوم الفكر: مصطلح الفكر يعني كل ما أنتجه عقل المسلمين منذ البعثة النبوية إلى اليوم في المعارف الدينية والكونية والإنسانية في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا. ومما تجدر ملاحظته أن الفكر الإسلامي نابع أيضا من هدايات الوحي، غير أنه يجب التمييز بين الفكر الإسلامي وبين الإسلام، فالأول فهم بشري متغير، وغير معصوم قابل للخطأ والصواب، بخلاف الثاني ثابت في مصدريه المعصومين. وهذا التمييز ضروري أيضا، حتى لا نخلط بين الوحي الإلهي، والفكر البشري. وقد جر عدم الفصل بينهما إلى ويلات في

تاريخ المسلمين، حيث أحيطت أفكار العلماء بهالة من التقديس من الأتباع قدمت حتى على النصوص المعصومة، أغلق بسببها باب الاجتهاد والتجديد معا «٢». فالتراث الفكري الإسلامي حينئذ هو ما تركه السلف للخلف من فهوم عقدية وفقهية وخلقية نابعة من نصوص الكتاب والسنة.

مفهوم التجديد: «تجديد شيء ما، هو أن نبقي على جوهره ومعالمه وخصائصه، ونرمم منه ما بلي، ونقوي من جوانبه ما ضعف. كتجديد جامع أثري، أو قصر أثري. فلا بد من المحافظة عليه وعلى خصائصه ومادته، وتجدد من ألوانه ما ذهب منها، ومن بنائه ما وهى، وتحسين مداخله، وتجميل الطريق إليه . فالتجديد حينئذ ليس معناه أن نزيل الشيء وننشئ شيئا جديدا مكانه» «٣». وعليه فتجديد التراث عمل فكري بشري يقوم به المفكر لإيجاد حلول جديدة لقضايا حادثة لم تكن عند السلف انطلاقا من المخزون الثقافي والعلمي الموروث، في إطار نصوص الكتاب والسنة. فلا يراد بالتجديد الإلغاء والإزالة، بل المراد النظر في التركة الفكرية من أجل إعادة تفسيرها وتنقيحها وتصفيتها لإبقاء ما يستجيب منها لمتطلبات القضايا المستجدة الراهنة.

إشكالية التجديد: ظهر الوعي بالتجديد من بداية القرن الماضي، على أيدي كوكبة من رجال النهضة والإصلاح، بعد الاتصال بين العالمين الغربي والإسلامي، والشعور الرهيب بالعجز والتخلف عن الركب الحضاري. فبدأت صيحات التجديد تهفو إلى الانطلاق والإقلاع. غير أن ذلك جوبه بأنواع من العقبات وقفت في طريق المجددين والمصلحين النهضويين، جعلت التجديد أحد إشكاليات هذا العصر التي برزت بحدة على الساحة الفكرية والثقافية، حيث تضاربت حوله الآراء بين مد وجزر، وبرزت عدة مواقف متباينة منه، يمكن إجمالها فيما يأتي «٤»:

أولا: التغريبيون، ويمثل النخبة التي تأثرت بالفكر الغربي، وانبهرت بالحضارة الأوربية، فراحت تنادي بالاندماج اللامشروط، والانفتاح اللامحدود لكل ما هو غربي، والانسلاخ من الماضي، وترك التراث بدعوى عدم صلاحيته للمستجدات.

وانتشرت هذه الدعوى تحت غطاءات متنوعة، كالتنوير، والحداثة، والتجديد، والعصرنة، وغيرها من الألقاب والمسميات التي جاءت لتجرف التراث وتلقي به في المتاحف. وتركزت دعوة هؤلاء على إعادة قراءة التراث قراءة معاصرة تلغي قراءة السلف كلية، وتجريد النصوص من الظروف التاريخية والمناسباتية التي نزلت في ضوئها، لتفسيرها بما يتلاءم والعصر «٥». غير أن هذه الدعوى لقيت صدودا ورفضا قاطعين من الأمة بأسرها، لكونها تخفي وراءها أغراضا دنيئة وخطيرة تسعى إلى القضاء على مقدسات الأمة وهويتها الفكرية والحضارية.

«ولهذا فإن أسوأ ما يمكن أن تتعرض له ثقافات الشعوب الآن هو تلك اللعبة التي تحمل اسم التنوير، وتخفي أغراضا سياسية مشبوهة، أو تصبح أدوات هدم وتخريب لمقومات الشعوب في الفكر والسلوك والعقائد» «٦». والاغتراب الفكري نتيجة الانبهار بالآخر، حدث للتراث الإسلامي مرتين في تاريخه أدى إلى مسخه وتشويهه:

■ **المرة الأولى:** في العهد العباسي حين انفتح المسلمون على الثقافة اليونانية والإغريقية، وانبهروا بإنتاجها، فراحوا يترجمون وينقلون دون تمحيص، بل إنهم فلسفوا الدين وأغرقوه في المنطق الأرسطي، حتى انقلب إلى جدل كلامي عقيم، كان له الأثر البالغ في الهوة العميقة الفكرية والروحية بين الأمة وبين كتاب ربها وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام.

■ **والمرة الثانية:** في العصر الحاضر، حين سيطر الاستعمار الحديث على مقومات الأمة الفكرية، واستطاع أن يغير الكثير من المفاهيم العقدية والسلوكية تمشيا مع منطلقاته، ورفعت ألوية التنوير والحداثة المزورة للتراث والقيم، وهو ما عرف باسم الغزو الفكري والثقافي، الذي ما زلنا نعاني من آثاره إلى اليوم، حيث ألغي العمل بالتشريع الإسلامي في معظم الميادين والقطاعات باستثناء الأحوال الشخصية، ومسخت الأمة في شخصيتها الدينية التي استبدلت بالشخصية الغربية في العادات والتقاليد، وشوه التاريخ الذي طالته تفسيرات مشبوهة تحط من كرامة الأمة وعزتها.

يقول الشيخ الغزالي: «العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام والحدود، التي استبانت معالمها في الكتاب والسنة، هي هدايات الله لخلقه، وكل محاولة للبتر أو الإضافة أو التحوير، فهي خروج عن الإسلام، وافتراء على الله، وافتيات على الناس، وتهجم على الحق بغير علم. وليس يقبل من أحد بتة أن يقول: هذا نص فات أوانه، أو هذا حكم انقضت أيامه، أو أن الحياة بلغت طورا يقضي بترك كذا من الأحكام أو التجاوز عن كذا من الشرائع. فهذه كلها محاولات لهدم الإسلام، وإعادة الجاهلية. وقد وردت عن الرسول ﷺ آثار تفيد أن الله يوفق لهذه الأمة من يجدد لها دينها. فلنعلم أن تجديد الدين لا يعني ارتكاب شيء من هذه المحاولات المنكورة، بل تجديد الدين يعني توضيح ما أبهم الجهل من تعاليمه، وتمكين ما زحزح التهاون من أمره، وحسن الربط بين أحكامه وبين ما تحدث الدنيا من أقضية، وتنزيل أحوال الحياة المتغايرة على مقتضيات القواعد العامة، والمصالح المرسلة، ولم يفهم أحد من العلماء الأولين أو الآخرين أن تجديد الدين يعني تسويغ البدع، ومطاوعة الشهوات، وإتاحة العبث بالنصوص والأصول لكل متهجم» «٧».

ثانيا: النصوصيون، هم أصحاب الاتجاه الظاهري الذين يرفضون دعوات التجديد، بدعوى اكتمال الشريعة ووفاء نصوصها بكل ما يحتاجه الناس عبر العصور، ومن ثم يتشبثون بالتراث سواء منه الثابت أم المتغير، بل يحاولون بناء النسجة ثقافية مشاكلة للماضي، ويكررون نفس التفسيرات والفتاوى لما يستجد من الأحداث والنوازل بدعوى ما ترك الأول للآخر شيئا. وقد وقعوا في أخطاء كثيرة بسبب التوغل المفرط في الماضي، كقولهم بتحريم التصوير الفوتوغرافي والسينمائي والتلفزيوني، أخذا بظواهر الأحاديث التي لعنت المصورين، وكذا تحريم استعمال الذهب المحلق على النساء كالخاتم والأسورة والقلادة والقرط، تمسكا بظواهر أحاديث لم تسلم من طعن واعتراض. وكذا قول بعضهم بعدم وجوب الزكاة في عروض التجارة وإن بلغت الملايين، بل هناك من يرى عدم وجوب الزكاة في النقود الورقية وأنه لا يدخلها الربا، لأنها ليست من النقود الشرعية التي وردت فيها الأحاديث «٨».

ودعوى هؤلاء مرفوضة، فكمال الشريعة لا يتناقض مع حركة التجديد، فقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ «المائدة -٣-» لا يتنافى أبدا مع قوله: «بعث الله

لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»(٩)، فأين التنافي والتعارض؟ إذا علمنا أن الدين عقيدة وشريعة، أصول وفروع، مبادئ وقواعد وكليات، وهي جميعها قد اكتملت بانتهاء الوحي، لكن يبقى تنزيلها في أرض الواقع يخضع لظروف الزمان والمكان والحال»(١٠).

فالتجديد حينئذ لا يطال الأصول المكتملة، بل يتعلق بالأشكال والتطبيقات والتدابير التي تتغير تبعا للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية، وغير ذلك، ومن ثم كانت الأصول ثابتة تستعصي على أي تجديد، بخلاف الفروع جاءت مرنة لتتلاءم مع المستجدات الزمانية والمكانية، وهذا سر خلود الشريعة وخاتميتها. كما أن القول بوفاء النصوص المطلق مردود، فالنصوص التشريعية محدودة متناهية، بخلاف الوقائع والنوازل متجددة غير متناهية، والمتناهي لا يحيط باللامتناهي بداهة. ولو كانت تلك الدعوى صحيحة لما كان للاجتهاد معنى ولا للفقه وجود.

ثالثا: التقليديون: هم أتباع المذاهب الفقهية الذين تمسكوا بأقوال أئمتهم وتراثهم الفقهي إلى درجة التقديس، ورفضوا كل محاولة للخروج عنها، مما أدى إلى جمود الرأي وانحباس الفكر وتعطيل الاجتهاد. ورأوا أن المذاهب كافية لاستيعاب الجديد من القضايا والمسائل، بل إذا بحثوا عن نازلة جديدة ولم يجدوا لها تخريجا في بطون كتبهم، افتوا بتحريمها، وكأن الأصل في المعاملات الحظر إلا ما أفتى به السابقون»(١١)، وهذه دعوى كسابقتها مردودة، فأصحاب المذاهب لم يدعوا العصمة لأقوالهم وآرائهم، ولم يلزموا الأتباع بوجوب الاتباع، يقول الشيخ الغزالي: «فقادة المذاهب كانوا يشرحون الكتاب والسنة، ويعدون شروحهم اجتهادا مقنعا لهم ولمن معهم، ولكنهم ما رأوا قط أن الصواب حكر عليهم، ولا عادوا غيرهم فيما فهموه هم. ثم جاء الأتباع أخيرا فأخذوا أقوال أئمتهم على أنها الأصل الذي يشرح، ونظروا إليها كأنها الدين الذي يتبع، ونشأ عن هذه جفوة بين مقلدي المذاهب المختلفة، كما نشأت جفوة بين كتب الحديث وكتب الفقه، وهذا العوج الثقافي أضر كثيرا بأمتنا»(١٢).

رابعا: الوسطيون: هم الذين جمعوا بين القديم والجديد، وبين مقتضيات الشرع ومحكمات العصر»(١٣)، فلم يجمدوا على التراث ولم يرفضوه، ولم يرتموا في أحضان الحضارة الوافدة بكل إيجابياتها وسلبياتها، ولم يعرضوا عنها كلية، بل أخذوا من التراث ما يستجيب لتطلعات الراهن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وتركوا ما تجاوزه الزمن، واقتبسوا من نتاج الحضارة مما لا يتعارض ونصوص الشريعة وروحها ومقاصدها. ويمثل هذا التيار رجال الإصلاح والنهضة والتجديد في كل عصر خبا فيه شعاع الفكر، وانطمست فيه معالم الاجتهاد، وهيمنت حركة التقليد والجمود والقعود.

حتمية التجديد وضرورته:

إن الوسطية هي الخيار الذي اختاره الجمهور، لكونها لا تتنافى مع قواعد الشريعة وروحها ومقاصدها، ولا تشذ عن سننية الحياة وغائية الوجود في التجدد كلما طال الأمد. وشواهد التاريخ حية تشهد لهذا الاتجاه بدءا من رائد التجديد الإمام الشافعي مع «الرسالة» التي ألفها في علم الأصول، مرورا بالإبداع غير المسبوق للجويني في أسرار الشريعة ومقاصدها في «البرهان»، ثم الغزالي وموسوعة «الإحياء» في تجديد الوعي بالذات، ثم الإنجاز الرائع للعز بن عبد السلام في ضبط المصالح والمفاسد والموازنة بينها في «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»، ثم الفتح الجديد على يدي ابن تيمية وابن القيم في تجديد روح الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا، وإعادة النبض للحياة الروحية والفكرية، ثم انتهى الأمر إلى مجدد المغرب الشاطبي والتأسيس البديع لأصول الشريعة ومقاصدها الذي لم يسبق إليه في «الموافقات»، وعاد الركود مرة أخرى وساد التقليد إلى أن استيقظ العالم الإسلامي تحت نير الغزو الفكري الحديث، حيث سادت المنظومة القانونية والفكرية الغربية. فنشطت حركة التجديد على أيدي كوكبة من رجال الفكر والإصلاح»(١٤)، يتقدمهم مجدد الحجاز الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التوحيد والعقيدة، ثم ظهور مجدد الشرق جمال الدين الأفغاني الذي دعا إلى تحرير العقل الإسلامي من الجهل والخرافة، وترك التعصب والتقليد، ورفض الاستبداد السياسي في الحكم، والاستفادة من الحكمة الغربية في المجال العلمي والمعرفي، كما انتقد مناهج التفسير القديمة التي أوغلت في اللغويات والعقليات والإسرائيليات، ودعا إلى إعادة النظر في تفسير القرآن بمناهج معاصرة تستجيب لقضايا العصر. ولقيت دعوته صدى واسعا ظهر في تفسير المنار على يدي الشيخين محمد عبده ومحمد رشيد رضا، حيث برزت مظاهر التجديد من خلال تفسير النصوص تفسيرا حضاريا يلبي الحاجات الروحية والفكرية والاجتماعية، بعيدا عن الغلو في الغيبيات والوهميات والجدليات التي صدت المسلمين عن كتاب الله. وطالت حركة التجديد أقصى الشرق على يد الفيلسوف محمد إقبال الذي دعا إلى تجديد فهم العقيدة، وتحرير الفكر الإسلامي من الخرافة، ودعا إلى فلسفة الذات، وتعني الشعور باستقلال الشخصية وعدم الاستيلاب الحضاري، ورفض التصوف القائم على العزلة الفكرية والاجتماعية والانزواء. كما كان لظهور العالم الكردي المسلم بديع الزمان سعيد النورسي في تركيا أثر بالغ

الأهمية في التجديد والنهضة، فدعا إلى استبدال علم الكلام القديم الذي تجاوزه الزمن، بعلم كلام جديد مبني على القرآن بعيــــدا عن الغـــوص في المصطلحات الفنية والمنطقية، كما استعان بالمعارف العلمية الحديثة في تفسير القرآن تفسيرا معاصرا أعاد له الحيوية والحركة التاريخية المفقودة منذ أمد بعيد. وفي الغرب الإسلامي ظهر العلامة محمد بن علي السنوسي المستغانمي الجزائري الفقيه المجتهد، الذي أنشأ مئات الزوايا السنوسية في صحراء ليبيا، من أجل التوجيه الروحي والفكري والاجتماعي، مما كان له أثر بارز في انتشار نور الإسلام في إفريقيا، وبعث حركات الجهاد والتحرير من الاستعمار، بعد أن حررت العقول والأفكار. كما ظهر العلامة محمد الطاهر ابن عاشور التونسي وتفسيره «التحرير والتنوير» الذي يدل عنوانه على التجديد، رمز الحرية والنور، وعبد الحميد ابن باديس الجزائري باعث النهضة الجزائرية، وتفسيره «مجالس التذكير» الذي كان على خطى المنار في المنهج والأسلوب، وفي أقصى الغرب كان ظهور المجدد الشيخ أبو شعيب الدكالي، والشيخ الحجوي الثعالبي الفاسي، وأضرابهما من المجددين المصلحين الذين حرروا الفكر من الجمود والتقليد وبعثوا الوعي، وأيقظوا الضمير، وزرعوا الأمل، وأحيوا الأمة من جديد.

وهكذا بفضل هذه الحركات التجديدية، تحرر العقل المسلم من ربقة التقليد والتعصب المذهبي، واستعاد المسلمون الشخصية المفقودة التي اختفت وراء الغوص في أعماق الماضي، والانبهار بالحضارة الغربية، وانتشر الوعي في الآفاق باسترجاع الحرية المسلوبة، ونشطت الحركة العلمية في بعث التراث وإحيائه وفق المناهج الحديثة، فكان ظهور الموسوعات الفقهية المقارنة التي حررت التراث من العصبية والتقليد، هذا فضلا عن المجامع الفقهية التي تنظر في القضايا الجديدة، إضافة إلى مئات الأبحاث العلمية في قضايا معاصرة غير مسبوقة، وما يزال المجددون يظهرون من حين لآخر مصداقا لحديث رسول الله ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» «١٥».

والخلاصة أن التجديد ضرورة حضارية وإنسانية لا مفر منها لأي مجتمع يسعى لإيجاد مكانة تحت ضوء الشمس، وهو سنة كونية طبيعية لا تغادر صغيرة ولا كبيرة من الأحياء، وأن التراث الفكري الذي لا يقبل التجديد يكون عرضة للموت والفناء، ولا سبيل لإحيائه إلا بالتجديد فيما يتجدد من المتغيرات، بخلاف الثوابت والأصول فإنها بمثابة الأركان التي تحفظ الهوية الثقافية والفكرية للأمة. وحينئذ فالتجديد لا يعني الانسلاخ من القيم والثوابت، ولا التعسف في التأويل والتفسير للنصوص القاطعة، والمحكمات، والمعلوم من الدين بالضرورة، وإجماعات الأمة. كما أن التعصب المذهبي والتمسك الحرفي بالنصوص والتقليد الأعمى، لا يكفي لاستيعاب النوازل والوقائع الجديدة، ولا ينهض بالأمة فكريا وثقافيا، مما يحتم على رجال الفكر أن يعيدوا النظر والبحث في ثنايا النصوص الظنية المحتملة، لتفسيرها بما يستجيب وقضايا العصر، وكذا بعث الوعي في الضمير الجمعي للأمة من أجل المراجعة والمذاكرة والمذاكرة المستمرة للتراث عبر دورات زمنية تقتضيها السنن

الهوامش

١- انظر الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، دار هومة، ط/١٩٩٦م، الجزائر، ص: ١٣٥، ١٣٦.

٢- انظر/ محسن عبد الحميد: تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، ط/١٩٨٥، مصر، ص: ١٨، ٢٩.

٣- انظر/ القرضاوي: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، ط٢/٢٠٠٥م، مصر، ص: ٥٣، ٥٤، بتصرف.

٤- انظر/ ماجد الغرباوي: إشكالية التجديد، دار الهادي، ط١/٢٠٠١م، بيروت، لبنان، ص: ٢٦

-عبد الحميد أحمد أبو سليمان : أزمة العقل المسلم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص:٢١

- القرضاوي: المرجع السابق، ص: ٥٤

٥-انظر/ عبد الحميد أبو سليمان : المرجع السابق، ص: ٢٧

٦- القرضاوي: المرجع السابق، نقلا عن مقال للأستاذ فاروق حويدة، في صحيفة الأهرام، ص: ٦٤

٧- محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، دار الكتب، ط/ ١٩٨٧م، الجزائر، ص: ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

٨-انظر/ القرضاوي: الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط، المكتب الإسلامي، ط٦/ ١٩٩٨م، بيروت، لبنان ص: ٩٤

٩- رواه أبو داود في كتاب الملاحم، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في المعرفة، وغيرهم، ومخرج في صحيح الجامع الصغير (١٨٧٤)

١٠- انظر/ محمد عمارة : معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، طبع نهضة مصر، ط/١٩٩٦م، ص: ١٦٨

١١-انظر/ القرضاوي : الاجتهاد المعاصر، ص: ٩٤

١٢-الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، ط٩/ ٢٠٠٥م، القاهرة، مصر، ص: ٣٩، ٤٠

١٣-انظر/ الغرباوي : المرجع السابق، ص: ٢٦- القرضاوي: الاجتهاد المعاصر، ص: ٩٦

١٤-انظر/ محسن عبد المجيد: المرجع السابق، ص: ٧٥ فما بعدها.

١٥- سبق تخريجه.